انطوني ديليوس
جنوبي افريقيا

في قصيدة نشرناها في مكان سابق من هذا العدد ، يذكر رولاند دمبستر « ابناء وبنات » افريقيا «الذين لا يزالون تغسلهم الدموع» . ولا شك ان في فكر الشاعر تلك الارجاء من افريقيا التي ما برحت تئن من الظلم والاستعمار، كجنوبي افريقيا (موضوع هذا المقال) وانغولا وموزمبيق (موضوع المقال التالي له) .

لقد بدا ذلك الحلم الامبراطوري القديم عن افريقيا ، كقارة متصلة من كيبتاون الى القاهرة ، وكأنه قد تحقق على نحو غريب في اواخر تموز (يوليو) من عام ١٩٦٤ . فقد اجتمع الزعماء الافارقة الجدد في القاهرة لمؤتمر الذروة الثاني لمنظمة الوحدة الافريقية ، وقضوا معظم ايام نقاشهم الاربعة في شجب سياسات جنوبي افريقيا العنصرية شجبا عنيفا ، ودعوة شعوب العالم الى فرض العقوبات على هذه الدولة والى مضاعفة الجهود من قبل المناضلين من اجل الحرية لتقويض معقل العنصرية والاستعمار في الجنوب . (جوليوس نيريري ، زعيم تنغانيقا ، وحده لم يضيع وقتا على جنوبي افريقيا—فقد انشغل بتهديم كوامي نكروما ، الزعيم الغاني، لاساءة استعمال الاخير فكرة « الوحدة الافريقية » المقدسة) . وفي الوقت نفسه ، في كيبتاون، قام المكتب الخاص للشرطة بكبس بيوت زعماء الرأي الليبرالي واعتقل اساتذة وطلابا بيضا من الجامعة ، بحجة تحطيم جماعة تخريب جديدة قيل انها مرتبطة بحركات التحرر الافريقية العامة . وكان ذلك دليلا ، في قارة تقلصت ابعادها ، على ان الالتزامات والهاويات كلتيهما آخذة في العمق بين المعسكرين الرئيسيين في افريقيا .

انه ليبدو ان جيلا كاملا ، لا ردحا يقل عن خمس سنوات ، قد مر منذ ان وقف هرولد ماكميلان ، رئيس وزراء بريطانيا آنئذ ، خطيبا في الشيوخ والنواب المجتمعين في كيبتاون ليحدثهم عن « رياح التغير » التي جعلت تهب على افريقيا، واستشهد لهم بشعر جون ضن (« ليس احد من الناس جزيرة ») . وبعد ذلك ، عام ١٩٦٠ ، قام ايضا داغ همرشولد المعذب النفس ، بزيارة لكيبتاون وتحدث بحرارة الى ساسة جنوبي افريقيا. وقد تنقلوا به في الرحلة الكريمة المعهودة بين الكروم والمنازل الريفية بواجهاتها الاوربية الرفيعة في « المقاطعة الغربية » : وقالت احدى الصحف (بعد موته) انه راح يمشي بين تلك المجالي البديعة وهو يتمتم « ولكن هذه ليست افريقيا ! » ان جنوبي افريقيا ، ولا سيما كيبتاون ، تذكر همرشولد بودّ اكثر مما تذكر ماكميلان ، ولعل السبب الاهم في ذلك هو اعتقاد الناس بانه ، بدلا عن ان يذكّر المواطنين بالقارة التي هم يعيشون فيها ، رضي بأسطورتهم المحلية القائلة بان « جنوبي افريقيا ليست افريقيا » . اما بشأن جون ضن ، فان الرأي المحلي بلغ حدّا يجعل الدكتور فروورد يدّعي اليوم بصراحة ان جمهوريته « جزيرة معافاة » في عالم « مريض » .

هذا الموقف المنطوي على التجاهل والازدراء تجاه بقية القارة صادر عن الموروث بقدر ما هو صادر عن الارتباك والخوف الخبيء . فمدينة الكيب ، حيث تصنع شرائع البلد وتوضع فلسفاته السياسية ، تشعر دائما بان في وسعها ان تأخذ افريقيا او تتركها. فالرجل الابيض لا بد له من قطع مسافة الف ميل الى جوهانسبرغ او ستمائة ميل الى بورت اليزابيث قبل ان تجابه عينيه رؤية الجماهير السوداء . بل انه في جوهانسبرغ قد يقطع شوارع باكملها دون ان يرى وجها ابيض . اما في كيبتاون فلا يرى الاسود الا باعتدال في الطرف

الاسفل من المنشور الاجتماعي ، مع المنسرح الكامل للقطاع « الملون » (او العرق الخليط) من الفاقع الى المظلم الواقع بين اوربا وافريقيا .

من المحتمل ان يكون حس البعد هذا عن افريقيا المحيط بالسلطة التشريعية ، عاملا من عوامل التباطؤ في تراجع جنوبي افريقيا ، طيلة خمسين عاما ، عن الليبرالية الخافتة التي عرفت بها كيبتاون في الماضي . وكانت اول اشارة كبيرة الى ان المسافة قد كادت تتلاشى هي مسيرة ثلاثين الفا من اعضاء مؤتمر الوحدة الافريقية المتوترين الى قلب المدينة ايام « الازمة الطارئة » المثيرة قبل اربع سنوات خلت . غير ان الطف الايماءات الى ان القارة في تقلص هي ان عبر البحر ، على بعد سبعة اميال فقط، يوجد دائما ذلك الرجل الذي ساروا عندما امرهم بذلك من بعيد . ففي جزيرة روبين ، في الفم من خليج تيبل ، يقيم روبرت منغاليسو سوبوكوي ، زعيم الـ PAC المحظورة الآن ، معتقلا فيما يبدو « الى ما شاء الله » (على حد قول وزير العدل، جوهانس فورستر) . وجريمة هذا المحاضر الجامعي سابقا هي انه ، كما اعترف فورستر ، زعيم متفانٍ فذّ شعاره ان « افريقيا للافريقيين » . وقد انضم اليه مؤخرا في الجزيرة زعماء ثلاثة من « المؤتمر القومي الافريقي » المنافس لحزبه ، وهم نلسون منديلا ، و وولتر سيسولا ، و غوفان امبيكي . وقد ارسلوا هناك لقضاء الاحكام المؤبدة التي صدرت بحقهم في اواسط حزيران (يونيو) الماضي في محاكمات تخريب «ريفونيا»، في بريتوريا .

منذ حوالي مائة وخمسين سنة كان ثمة زعيم افريقي فذّ آخر سجينا في هذه الجزيرة، شعاره لا يختلف كثيرا عن شعار « افريقيا للافريقيين ». كان هذا قائدا وطبيبا ساحرا لعشيرة الخوسا الكبيرة ، وقد قرر ان على البيض « ان يُدفعوا الى البحر الذي قدموا منه » . وقد حطم نفسه كما حطم قوة الخوسا حين القى بجيش من عشرة آلاف مقاتل في هجوم على حصن بريطاني صغير قائم في قاعدة على الحدود تدعى غراهمزتاون ، واخذ اسيرا الى جزيرة روبين . غير ان هناك فرقين بارزين بين مكانا و سوبوكوي: الاول ان احداً لم يسمع حينئذ باعتقال مكانا ، لا في افريقيا ولا في العالم . على ان الفرق الثاني هو الذي يشير الى ان العلاقات بين السود والبيض ربما تحسنت بعض الشيء منذ ان غرق مكانا وهو يحاول الهرب . اذ نكاد نجزم ان مكانا ، لو كسب المعركة ، لقتل كل ابيض تقع عليه العين ، في حين ان سوبوكوي يقبل البيض باعتبارهم « افريقيين بيضا » ويرضى بوجودهم كأمر دائم . اما منديلا فانه ، بموجب سياسة الـ ANC التي مضى عليها خمسون سنة ، ما زال في الاغلب مستعدا للتقليل من التوكيد على « الافريقي » اكثر من قبل . ولكن من الصعب الآن ان نقول كم رجلا من الاعضاء الالف العاديين في الـ PAC ، والمسجونين حاليا في الجزيرة باحكام طويلة بتهمة « الهدم والارهاب » ، يوافقون بعد كل هذا على آراء سوبوكوي ومنديلا ، عوضا عن مكانا .

العاصمة المضادّة

اذا كانت اديس ابابا ، بتأييد من مؤتمر القاهرة التي هي المقر الدائم لمنظمة الوحدة الافريقية ، يمكن اعتبارها عاصمة افريقيا ، فان كيبتاون ، بالنسبة الى افريقيا ، هي « عكس العاصمة » او «العاصمة المضادة». وفي كل مكان شمالي الزمبيزي ، ترى الزعماء في تخمين ونقاش حول افضل السبل الى تطبيق « ميثاق منظمة الوحدة الافريقية » الذي كتبوه في اديس ابابا في ايار (مايو) ١٩٦٤ . وفي اديس ابابا نفسها ما زالت « اللجنة الاقتصادية لافريقيا » تغمر القارة ، متفائلة ، بفيض من الورق تنصح فيه بايجاد « كتل اقليمية اعظم» لمجابهة النواقص والاخطار الاقتصادية في افريقيا. بل ان الدكتور نكروما يتشبث بحلم عن اتحاد سياسي اقتصادي افريقي له علم واحد ، وبرلمان واحد، ومقعد واحد في منظمة الامم المتحدة. ولكن رئيس الوزراء الدكتور فروورد ، في برلمان كيبتاون ، قد ادرج تقريرا يقترح تقسيم الخمسمائة الف نسمة القاطنين في جنوبي غربي افريقيا الى احدى عشرة منطقة مختلفة شبه مستقلة . الا ان الدول الغربية قد اقنعت الدكتور فروورد بوقف هذه الخطط السياسية الى ان يصدر قرار المحكمة الدولية بشأن التفرقة العنصرية في انتداب جنوبي غربي افريقيا ، في اواسط عام ١٩٦٥ .

اما التقرير فقد وضع وفق فلسفة فروورد المتصلبة التي تنص على « تنمية منفصلة » للفئات العنصرية ،

وتحبذ تجزئة سكان الجمهورية السبعة عشر مليونا الى ما لا يقل عن تسع دويلات عرقية مختلفة . ولو طبق هذا النظام نفسه على افريقيا كلها ، لتجزأت القارة الى حوالي سبعمائة امارة صغيرة !

كل من يعتقد ان هذا النظام ، وما ينطوي عليه من افكار ، انما هو خدعة دستورية وفكرية للابقاء على امتيازات البيض ، فانه يتجاهل ايمان القوميين الافريقان (اي البيض في جنوبي افريقيا) بما في «الابرثايد» (فلسفة التفرقة العنصرية) حسب زعمهم من منطق شامل . فحلقة فروورد الباطنية من المثقفين يعتقدون ان بوسعهم ان يبينوا امكان تطبيق نظامهم على افريقيا باجمعها على الاقل ، ولنا ان نرى ذلك في تعيين المستر و . ك . دوبليسيس رئيسا للادارة في الجنوب الغربي .

ان المستر دوبليسيس ابيض وافريقاني متفانٍ . وقد توجهت اليه الانظار اول مرة في اثناء الحرب العالمية الثانية ، عندما خيره رئيس الوزراء حينئذ ، الجنرال سمطس ، بين ترك وزارة الخارجية او الانسحاب من « الاخوّة الافريقانية » ، فاستقال من خدمة الدولة . و « الاخوّة الافريقانية » منظمة ينتمي اليها الدكتور فروورد ، وهي تكرس جهودها لايجاد وظائف بعيدة النفوذ للاصدقاء وتحويل جنوبي افريقيا الى نسخة افريقانية مرفهة عن دويلة جنيف الثيوقراطية التي اقترحها كالفين . وقد عين منذ ١٩٤٨ سفيرا في وشنطن، ورئيسا للمكتب الافريقي في بريتوريا ، ووزيرا للاعلام . وبصفته الاخيرة اصدر عام ١٩٦١ « منشورا وقائميا » بالانكليزية والفرنسية والالمانية ، يستهدف البرهان على ان « التنمية المنفصلة » بوسعها ان تنقذ افريقيا والغرب معا .

والمستر دوبليسيس يشاطر عددا من الناس الآخرين الاعتقاد بان الافارقة ، اذ راحوا يتدافعون نحو الاستقلال ، اهملوا « السلطة التقليدية » كقوة استقرار في المجتمع الافريقي :

«في رأيي ان الاولى والاهم (من القوى والمؤثرات التي تلعب دورا في تشكيلات افريقيا السياسية) هي ، لسوء الحظ ، تلك التي نراها تهمل اليوم – انها قوة التقاليدية كما يجسدها ويمارسها الآلاف من رؤساء افريقيا العشائريين في طول القارة وعرضها جنوبي الصحراء الكبرى » .

غير انه ينتهي بهذا الى نتائج ستذهل الكثيرين من مرافقيه في الطريق حتى هذه النقطة . فهو يدعو الى تفحص نوع الكيان الذي كان الابرثايد الفروورديّ بودّه لو يفرضه على غانا، والذي قد يهيئه منطق الاحداث لغانا في المستقبل على كل حال ! فهو يتنبأ اول الامر بان جمهورية الدكتور نكروما ستصبح « دكتاتورية اشتراكية ، وربما شيوعية » . ولن تكون تلك نهاية تطورها السياسي :

« اعتقد ان غانا ستصبح في النهاية ما كان يجب ان تكونه منذ البداية: دكتاتورية شيوعية يحكمها رئيس اكبر بمساندة مستشارين على النمط العشائري التقليدي » .

هناك عدد من الاشياء المدهشة قد تقع في افريقيا. ولكن ابعدها احتمالا، ولا ريب، هو استبدال «اوساغيفو»، و الـ CPP ، ومجلس اتحاد فلاحي غانا ، والعم جون تتغاه ، وغير ذلك، بال «اسانتاهين»، والمقعد الذهبي، و « اكان لور » ، ومجلس الشيوخ ، وغير ذلك مما انقرض من تقاليد الحكم القديم . وحتى لو اعيد شكل من اشكال السلطة التقليدية في حكومة ما تخلف نكروما – وهو امر مستبعد جدا – فان عودة غانا الى الكيان العشائري القديم محتمل بقدر ما هو محتمل ان تعود الجمهورية الفرنسية الى حكم آل بوربون المطلق !

وحتى في نيجيريا ، حيث ادى تطبيق لورد لوغارد « للحكم غير المباشر » الى ابقاء العديد من الامراء والشيوخ ، فان على هؤلاء ان يستخدموا الوسائل الحديثة للحفاظ على اي نوع من السلطة السياسية . وسلطان سقوطو ، في الشمال ، رغم زعمه بانه ليس ديمقراطيا، يرأس حزبا سياسيا ويدخل معمعة الانتخابات. ومجالس الجنوب التشريعية تعجّ بالشيوخ و « الاوبات » ، ويظهر ان الكثيرين منهم يتخذون مثل هذه الالقاب بعد فوزهم في الانتخابات (او كوسيلة للنجاح فيها) . فمما لا شـــك فيه هو ان النواب المنتخبين والمؤسسات النيابية ، مهما كان نوعها ، غدت مما لا غنى عنه في السياسة الافريقية اليوم .

وفي جنوبي افريقيا نفسها ، فان اول « بنتوستان » شكّله الدكتور فروورد ، وذلك في ترانسكي ، يبدو عصريا اكثر من « الدكتاتوريات العشائرية » التي يقترحها دوبليسيس على غانا . وقد تم تشكيله بانتخاب

نظام مبني على الصوت الواحد للرجل الواحد بين ثماني مائة وثمانين الف ناخب جديد من الخوسا . وقد كانت النتيجة ان حصل المرشحون المناصرون للشيخ الاكبر في بوندو الشرقية، فكتور بوتو ، المعارض للحكومة ، اغلبية اثنين لواحد .

وسرعان ما انعكس هذا النصر في اول اجتماع لمجلس ترانسكي التشريعي، الذي صوّت لمؤيد الحكومة الشيخ قيصر ماتنزيما باكثرية ضئيلة ادت الى جعله الوزير الاول . والمجلس يتألف من خمسة واربعين عضوا منتخبا يوازنهم بحذر اربعة وستون شيخا معينا ، يعتمد الكثير منهم من حيث الدخل والمنصب على حكومة الجمهورية . والشيخ قيصر ماتنزيما، على قدرته ، مدين ببروزه لتبني الحكومة له. ومما يلفت النظر ان الحكومة حتى في جنوبي افريقيا تشعر بضرورة تنصيبه في الحكم مع مظاهر الانتخابات والاجراءات البرلمانية .

بالطبع ، تستطيع الحكومة اذا شاءت ان تجعل الشيخ قيصر فيما بعد يتخلص من معارضة بوتو السياسة بخلق دولة ذات حزب واحد . ومن السخرية ان امرا كهذا سينسجم مع المبدأ المتبع تقريبا في كل مكان من قبل القوميين الافريقيين . ومن الناحية الاخرى ، اذا استطاع الشيخ الاكبر بوتو ، بمساعدة عدد من الاعوان السياسيين البارعين ، ان يخرج من الكفاح منتصرا ، فانه ملزم بالتمسك بالجهاز البرلماني المحافظ . والشيخ بوتو من القوميين الافريقيين النموذجيين في الجنوب ، وهو لا يطلب الاستقلال ، بل الاندماج . فبين اهل ترانسكي ثمة حس بالتقليد البرلماني الذي بدأ اجدادهم باكتسابه في اواخر القرن التاسع عشر ، عندما كانوا جزءا من المجموعة الناخبة في منطقة الكيب . وقد كان الخوسا ، حتى عام ١٩٦٠ – قبل ان يلغي القوميون الممثلين السود من البرلمان المركزي المؤلف كله من البيض – يشتركون دائما في الانتخابات البرلمانية . وان ممارسة ضرب من التقليد البرلماني لمدة طويلة هي بعض السبب في ان القوميين الافريقيين في الجمهورية لم يلجأوا اخيرا الى العنف الا مكرهين .

ليبرالية ؟

رغم هذا ، فان الانتماء الى التقليد البرلماني المتلاشي في جنوبي افريقيا اشبه بشعور المرء بانه من بقايا العهد الفكتوري الثقيلة في مستعمرة الكيب عام ١٨٩٠ . وسواء انظر المرء حوله هنا او الى الشمال ، فان امكانيات الحفاظ على اي محترمية سياسية تكاد تكون صفرا . فالصوماليون يقتلون الكل يمينا وشمالا هنا ، والبهوتو فقدوا صوابهم هناك ، والافريقانيون يخبطون وهم يدورون في دوائر عرقية اصغر فاصغر . ويبدو ان كل دولة في افريقيا ، باستثناء نيجيريا ، ستصبح قبل ان يطل عام ١٩٦٦ دولة ذات حزب واحد – ويبدو ان بعض الجرائد الليبرالية في لندن تريد ان يتم ذلك وهي فارغة الصبر في انتظاره ! وموئل الآمال الاسود ، لدى الليبراليين جميعا ، هو جوليوس نيريري زعيم تنغنيقا و زنجبار ، وها هم يمتدحونه لانه لن يصدر لائحة حقوق ! الى جانب هذا نرى ان جنوبي افريقيا ، وفيها معارضة بيضاء تنطق احيانا بلسان غير البيض كلهم في البلد، هي دولة ذات حزب ونصف حزب على الاقل – اي انها تسبق بمقدار نصف حزب النقطة التي يبدو ان بقية افريقيا تتجه نحوها .

اما الليبراليون الشباب فان رغبة قوية تساورهم احيانا في استخدام ضرب من العنف . فهم يجابهون مستقبلا من الكفاح الطويل الظاهر العقم ، بينما يروح خصومهم يقلصون رقعة العمل الدستوري حتى التلاشي تقريبا . وغارات رجال الشرطة مؤخرا ، وادعاءاتهم باكتشاف كميات خبيئة من المتفجرات ، قد تعني ان الليبراليين البيض (كنقيض للشيوعيين البيض) قد سئموا انحصارهم في حدود التنظيم والاحتجاج الخلقي والسياسي . فنسف عمود للاسلاك الكهربائية طريقة اشد درامية من مجرد الالفاظ في اظهار التكاتف مع الافريقيين المقيدي الحرية . كما ان ايماءات من هذا القبيل قد تحدّ من نمو العواطف الشيوعية بين الافارقة . اما الحكومة فانها بالطبع تزعم ان اي عمل نشيط لمساعدة الافريقيين في نيل حرية اكثر في جنوبي افريقيا انما هو من وحي « الشيوعيين » ، وان الليبرالية مهما كانت انما تؤدي الى « الشيوعية » والعنف . غير ان قوة الليبراليين في جنوبي افريقيا هي انهم يقدمون طريقا دستوريا يخرج بالبلد من وضع يزداد عنفا كما يزداد كبتا عنصريا وسياسيا . ولا يعود نشاط الحكومة المحموم في الوقت الراهن ضد الليبراليين الا الى ان الفكرة الليبرالية ما

زالت ذات فعل مقلق في الحلقات الجامعية ، والتجارية ، والكنسية بين الافريقان . ومقارعة اللاعقلانية العرقية التي تبديها الحكومة بلا عقلانية العنف قد لا تقوّي الا وضع الحكومة ، كما انها قد تضحي بعدد من وسائل الضغط الهام البعيد المدى .

في كل مكان نرى تضاربا بين اللاعقلانيات يؤدي الى انفجار العنف : شباب الـ « كانو » في كينيا ، طوائف الـ « لومبا » في روديسيا الشمالية ، الزعران من شباب البيض في جوهانسبرغ . وكلهم يكررون النمط نفسه . والشرطة في بلومفونتاين ، اذ يجددون اساليب الشرطة البريطانيين اثناء فترة الماوماو ، يدللون على ان الوحشية في تصاعد حتى في الاوساط الرسمية . واطار ذلك – العشائرية والعرقية ، وهما حجرا الرحى اللاعقلانية – يهيئه زعماء السود وزعماء البيض ، سواء بسواء .

افتح جريدة « كيب تايمز » واقرأ ما يلي بقلم المستر دونالد غدبولد ، احد سكان روديسيا الجنوبية ، وهو يزعم انه يعبر عن مشاعر الكثيرين من سكان روديسيا الجنوبية البيضاء :

« هذا الرجل الاسود الذي يقتل رجلا آخر لكي يأكله ، هل تراه يعاني تقريع الضمير لانه ، بموجب مقاييسنا ، اقترف جريمه القتل ؟ انه يفخر بما فعل – فحاجة الانسان كانت دائما الطعام ، وكانت مهمته ان يحصل عليه . لعل من حسن حظ الاقوام السود ان الرجل الابيض لم يكن يوما من اكلة لحوم البشر » .

عجبا ، اين كنا سائرين ، ان كان هذا كل ما عرفناه عن الآخرين طيلة القرنين الماضيين ؟ منذ مدة قصيرة ثار بعض العشائر لاعتقادهم ان البلجيكيين قتلوا بعض افراد العشائر الكونغولية الاخرى وعلبوهم طعاما للجنود . وانت بوسعك ان تخيف الرجل الاسود ، بقدر ما تخيف الابيض ، بقولك له : « ان اكلة البشر قادمون » .

صحيح ان الزعماء يلجأون الى المصطلحات الكونية عندما يفسرون سياساتهم وشعاراتهم . فالدكتور فروورد يصر على انه يستهدف السلم والرفاه وتحقيق التمنيات العرقية لدى فئات السكان كلها في جنوبي افريقيا. وفي اديس ابابا قال الزعماء الافريقيون انهم حين يتكلمون عن «افريقيا للافريقيين » فانهم يعنون ، بالطبع ، الافريقيين كلهم ، السود الزرق ، والشوكولاتيين ، والبنيين ، و الصفر ، و الشهب ، و البيض الحائلين ، والبيض . يعني اي فرد ، مهما كان لونه ، ممن لا يريد ان يكون استعماريا (من النوع القديم او الجديد) .

ولكن لدى سياسيي افريقيا (كالسياسيين في اي مكان آخر، الا انهم يفوقونهم في ذلك) نقطة دفاع داخلية تتألف من قبلية ، او قومية ، او عرقية ، تستثني كل ما عداها . فالقوميون الافريقان ، مثلا ، يفترضون ان مصلحة حكومتهم الاولى هي الافريقان ، ولا سيما الافريقان القوميين : واية مصلحة تتضارب مع هذه المصلحة ، حتى وان تكن مصلحة عامة للبيض ، ستتراجع وتنخذل في النهاية امامها . وفي الجرائد الافريقانية نجد احيانا مناقشات حول ما اذا كان البيض كلهم ينتمون الى « القوم » (Volk) ، او ما اذا كانت هناك فئة داخلية تتألف من « ابناء الدم » (كما عبّر عنها احد النواب الافريقان). والهمّ الاول لدى الغالبية الساحقة في الدول الافريقية هو الافريقي الاسود الازرق ، او الشوكولاتي اللون ، وعلى الاخص الكيكويو لدى حكومة كينيا ، و الهاوسا و الفولاني لدى حكومة اتحاد نيجيريا، و الباكونغو لدى حكومة الكونغو ، الى آخر ما هناك . اما الاقليات الاسيوية ، والعربية ، والملونة ، والبيضاء ، فهي مما يمكن الاستغناء عنه . لا شك في ان الساسة الحاكمين ، حين يشعرون بالطمأنينة والبحبوحة ، يتوخون مخلصين مصالح البشرية الكبرى . ولكنهم حالما تلم بهم الازمة يتراجعون الى قبلية او قومية او عرقية تستثني كل ما عداها .

يدافعون عن الدولة ذات الحزب الواحد بقولهم انها تسهل حفظ الدولة من التجزئة في محيط مبتلى بالولاءات العشائرية . فبلد كتنغانيقا ، مثلا ، بغير سلطة مركزية قوية ، قد ينهار الى مائة وعشرين فئة عشائرية مختلفة بفعل ساسة معارضين انتهازيين . والكونغو اليوم (وكذلك قبيل الاستقلال بما فيه من مائة حزب وحزب سياسي عشائري) مثل مريع على ما يمكن ان يقع في البلاد الافريقية الاخرى ، الا اذا استخدمت اقوى الوسائل للمحافظة على قومية اشمل – مهما كانت هشة . والاعراض الذي رأيناه في كينيا

و اوغندا و تنغانيقا عن ان تُمتص في اتحاد افريقي شرقي انما يدل على تردد الافريقيين في الاقبال على اخوّة افريقية اكبر واوسع . وفي نيجيريا هناك ثلاثة اقاليم ، لكل منها حيثية قبلية قوية ، ادت الى تشكيل اقليم آخر لتفسح المجال لحيثية قبلية رابعة ، وثمة الآن اقتراحات بامكان تقسيم البلد الى عشرة اقاليم او اكثر . وفي نيجيريا مائتا فئة عشائرية . وفي زنجبار كادت الشيوعية ان تسيطر نهائيا باثارة العنصر الافريقي على العرب الذين كانوا هم الحاكمون ، رغم ان العرب هناك كانوا منذ خمس سنوات يصرون على انهم هم ايضا افريقيون . والصوماليون يؤثرون ان يكونوا فقراء وصوماليين على ان يكونوا افضل حالا وكينيين . وحتى القومية الاشمل لا تدام ، على قلقلتها ، الا باقامة العنصرية الواحدة ضد الاخرى . فالرئيس نيريري ، رغم تعبيره عن عميق امتنانه لتدخل الجنود البريطانيين الذين انقذوا حكومته ، لم يصبر طويلا ، في اخراج الجنود البيض من تنغانيقا واستبدالهم جميعا بجنود نيجيريين سود .

واذ ينظر البيض في جنوبي افريقيا عبر القارة الى التماسك المريح الذي يرونه في اوربا ، فانهم بدأوا يزدادون شعورا بان الدكتور فروورد يجب ان يكون محقّا. وجعل المستقبل يبدو انه ينتمي الى الحفاظ على القوة اكثر مما ينتمي الى اللقاء بين الاشقاء . فالامن لدي فئة ما ، اذا وكل الى سياسة عنيدة كسياسة التفرقة العنصرية (الابرثايد) التي وضعها الدكتور فروورد، يُضمن اكثر مما لو وكل الى «قدسية» صوفية كالتي نادى بها الجنرال سمطس. ومهما يكن من امر ، فان «قدسية» الجنرال سمطس تخلق في النهاية منظمات كمنظمة الامم المتحدة، التي تعتبر اليوم عدوة جنوبي افريقيا الكبرى . فلماذا (يقول البيض في جنوبي افريقيا) يوكل اي رجل ابيض مستقبله ، في جنوبي افريقيا او روديسيا ، الى مواطنيه غير البيض ، اكثر مما يوكل الصومالي – اذا اتيح له – مستقبله الى الحبشي ، او القبرصي التركي الى القبرصي اليوناني ، او حتى الكندي الفرنسي الى الكندي الانكليزي؟ اذ ينظر عالمنا الآخذ بالتقلص الى هذه اللحظة من الزمن، وينصدم اذ يجابه خلافاته (ومتشابهاته) على مقربة اكثر من ذي قبل بكثير ، فان الكثيرين من المجابهين سيهتفون وقد اصابهم الذعر : « وقانا الله شر بقية الجنس البشري ! »

تعدد العرقية ؟

ان عزلة جنوبي افريقيا بين الدول لن تذعر الدكتور فروورد واتباعه فتدفعهم الى تعدد العرقية. فالعزلة في نظرهم يمكن تحملها ثم التغلب عليها ، في حين ان الرضا بتعدد العرقية الواقعي القائم الآن سيقضي في الحال على « الحزب القومي » ، وعلى هيمنة الافريقان السياسية ، وعلى مثلهم الاعلى : « امة بيضاء » . وفضلا عن ذلك ، هل من ضير في فترة طويلة من العزلة ؟ فالحيثية الجماعية وكثير من الميزات الجماعية التي يتصف بها الافريقان انما تبلورت عندما قضوا اواخر القرن السابع عشر وكل القرن الثامن عشر منعزلين في الطرف الاسفل من افريقيا على بعد سبعة آلاف ميل عن اوربا . وبوسع فترة انعزال اخرى ان تخلق تلاحما بين الافريقان والانكليز ، وربما حتى الملونين (اذا كان بالامكان ان نلوي منطق الدكتور فروورد الى هذا الحد) ، ليصبحوا امة جديدة تقوى على مقاومة اي ضغط من الافريقيين ، او العالم ، او التاريخ . وما من ريب في ان القوميين يعتقدون ان هذا امر جدير بالمحاولة والبلد ما زال يتمتع بالموارد الطبيعية التي تجعل العزلة محمولة ، ومفضلة على الانقراض القومي . وفي افريقيا ثمة اقوام صلبة اخرى تبلورت بالعزلة الطويلة ، كالبربر والحبشة . وعلى هذا النحو قد تظهر « امة افريقانية اعظم » من جراء ائتلاف العالم على تحطيمها .

« النضج » القومي فكرة كثيرا ما يشير اليها الدكتور فروورد . فهو يصنف الامم حسب نضجها . (وقد اعترف مرة بان الهند كادت تبلغ النضج). وهو مستعد لتبادل التمثيل مع الامم الافريقية عندما تصبح « ناضجة » (وصديقة) . والدول الافريقية في هذه الاثناء، اذا ابدت ما يكفي من الود ، ستشجع على ارسال بعض وزرائها في زيارات سريعة. الا ان المرء ليتساءل احيانا ان كان هذا الكلام الكثير عن النضج هو اكثر من حجاب يغطي به الدكتور فروورد عدم الاطمئنان الكامن في مؤخر وعيه لنضج بعض افكاره بالذات . ففي « المنطق » الذي يمتدحه الآخرون بشأن تفسيراته اللامنتهية شيء اشبه بتفكير الطلبة . وخطاباته تبدو كالاعيب الذهنية الاكاديمية التي تثبت ان الواحد يساوي صفرا ، او ان فلانا هو ابو نفسه . ويتجلى ذلك

اكثر ما يتجلى عندما يصر على الفصل بين الاجناس كمبدأ مطلق ، كوني . وبموجب ذلك يكون الرجل الابيض ، اذا وقف الى جانب رجل ملون في صف من الناس عند دائرة البريد ، او قرأ كتابا قرب افريقي على نفس المنضدة في المكتبة ، او انتمى الى جمعية طبية ينتمي اليها طبيب هندي ، قد خالف شريعة البقاء وهدد نظام الطبيعة بالدمار !

واجهم ثمار هذا المنطق الابرثايدي مكاتب « المناطق الجماعية » المختلفة . انها مقرات رواد « التنمية المنفصلة » الحكوميين ، وهم رجال ونساء يمتازون بالشدة النفسية ، يجمعون المعلومات عن الفئات السكانية ولا يفتأون يرسمون خطوطا لا تنتهي عبر المدن والارياف للتأكد من ان الالوان ستبقى حقا « منفصلة » . وعلى لوحات تخطيطهم وفي خرائطهم تتنامى خطة للنظام الاجتماعي الجديد – نظام « الحرية ، والمساواة ، والتنويع » .

هؤلاء المخططون المجدّون هم ، في الواقع، وسيلة البيروقراطية في جنوبي افريقيا في محاولتها تحويل المدّ في التاريخ البشري . وهم بالطبع ينقلون اعدادا كبيرة من الناس عبر مسافات قصيرة . وغالبا ما ينقلون غير البيض (اما البيض ففي احيان اقل) من مناطق عاشوا فيها منذ اجيال ، ليزرعوهم على بعد اميال في مدن جديدة خام ، لا يقيهم فيها جوار . وكثيرا ما ينقلون اناسا من السود او الملونين من اكواخهم الكئيبة التي تحف « المدن البيضاء » ليضعوهم في صفوف طويلة من المساكن الرتيبة ، ولكنها صحية ، اقيمت كبيوت الدمى ، على بعد آخر من منطقتهم . واحيانا تراهم ينقلون الهنود من مناطق انموا فيها التجارة مع مختلف الفئات ، ويلقون بهم في السهوب ليتاجر بعضهم مع بعض ! غير ان الصورة الشاملة لمزيج السكان لا تتأثر بهذا ابدا ، وتبقى الاتجاهات على ما كانت عليه من قبل .

هناك الآن حول « المدن البيضاء » من الافريقيين مليون، او يزيد ، اكثر مما كان عندما بدأت مجالس « المناطق الجماعية » عملياتها . والنسبة بين غير البيض والبيض (الصناعة ٣ الى ١ ، الخدمات ٤ الى ١ ، المناجم ٧ الى ١ ، الزراعة ١٠ الى ١) ما زالت كما هي ان لم تزد عما كانت عليه لصالح غير البيض . وثمة في المدن ربع مليون اكثر من المليونين ، وان يكن الخط الذي لا مرد له قد رسم بينهم وبين البيض . فحركة السكان وازديادهم، وتداخل الاقوام، كلها سائرة لا تنثني عن معدل النمو الذي تشير اليه ثلاثمائة سنة من تاريخ جنوبي افريقيا كبلد متعدد الاجناس .

كان الدكتور فروورد فيما مضى يقول ان اجراءاته «الاجتماعية الاقتصادية» (مصطلح آخر يردده بكثرة) ستحقق فصلا كتليا رئيسيا بين الاجناس قبل حلول عام ٢٠٠٠ . اما الآن فان احداث العالم ، وبخاصة مجيء الاستقلال السريع الى افريقيا ، قد جعلت القوميين يقولون ان عليهم ان يفعلوا في عشر سنين ما كانوا قد خططوا لفعله في خمسين سنة . وجلي ان تشريعاتهم كلها اليوم تبدي اعراض هلع متزايد ، ومنطق يتطور هائجا في فراغ. ولئن تكن اجراءات القوميين تسبب امتعاضا متزايدا (وان يكن في الوقت الحاضر مستسلما) بين غير البيض وقلقا معنويا للجميع ، فانها لا تغير شيئا في الوضع الشامل فيما عدا اشتداد الشعور بالخيبة . ولو اتبع « البانتوستان » سياسة ارحب صدرا لكان من المحتمل ان تحقق فسحة اكبر للسير نهائيا نحو تعدد العرقية – وان لم يكن في هذا ما هو اكيد فعلا . ان القوميين لن يستطيعوا آخر الامر ان يخرجوا من القفص السكاني الذي اقحمهم فيه التاريخ . كل ما هنالك هو انهم يوحون للمشاهد انهم يركضون اسرع فاسرع على دولاب العبث الذي في الداخل .

العالم مصغرا

جنوبي افريقيا هي « العالم مصغرا » . وفيما راح الغرب يوسع اتصالاته ببقية العالم ، غدت جنوبي افريقيا دوامة ذلك التوسع . فالاناس البيض الذين جيء بهم اولا الى هذا الطرف الافريقي لتزويد المراكب ، الدائبة في تجارة متنامية بين الشرق والغرب ، بالخضار واللحوم الطازجة، انتشروا اولا شرقا ثم شمالا في شبه القارة الجنوبي . وكلما ازداد البيض توغلا بين الاقوام الهجينة ، والبنية ، والسوداء ، ازداد حسهم ببياضهم المتميز،

كما فعل البريطانيون والفرنسيون والهولنديون حين راحوا يتوسعون شرقا وغربا .

وعندما انتهى التوسع السياسي بالنسبة للغرب، وبدأت التعديلات العظيمة في الامتيازات، وشرع في سحب الحكام، كان للغرب ان يعزي نفسه بان لسلطته وحيثيته قاعدة ومستقرا . وفي اوربا وامريكا كان الغربيون مطمئنين الى انهم ، على الاقل ، يحكمون انفسهم ، وان ارغموا على التوقف عن حكم الآخرين . غير ان بيض جنوبي افريقيا يجدون انفسهم في وضع مغاير مفزع . وقد يجد الغرب نفسه في وضع مماثل لو تصورنا مثلا ان منظمة الامم المتحدة بدا عليها ما يشير الى انها ستمسي عن قريب حكومة عالمية فعالة تسيطر عليها دول العالم النامية ، وتأكد ان كل مواطن من اثنين في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية يستطيع السفر سيدفق على اوربا والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، بحثا عن اجور اعلى ومعيشة اطيب .

فلو وجد الغرب نفسه في مأزق كهذا لفزع كما يفزع البيض الآن في جنوبي افريقيا ، ولراح مثلهم يخترع الفلسفات الانتهازية . وواقع الامر ان الغرب اخذ يتعلم كيف يعيش في مساواة مع اعداد غفيرة من السكان لا يستطيع بعد اليوم التحكم بها ، ولكنها لا تبدو انها ستغمره فيها . وكلتا القارتين الامريكية والاوربية جعلت تقتنع تدريجيا بانها متواشجة متداخلة ببقية العالم ، وانها ستزداد تواشجا وتداخلا على مر الزمن . الا ان جنوبي افريقيا ترى في سرعة النمو الاسيوي الافريقي ما يشبه موجة المد العارمة ، مما يثير فيها الرغبة في التراجع .

من المدهش ان هناك اقلية لا بأس بها من البيض في جنوبي افريقيا قاومت الاغراء بان تفزع او تتوقف عن التفكير . غير ان القوميين يستخدمون الراديو والصحافة (في دعاية لا تنقطع) للدفع بقلق البيض نحو درجة الحمى ، وذلك بالمبالغة بما هو اليوم ازمة في العلاقات البشرية في كل مكان . وهم يظنون انهم بذلك ينقذون « الحزب القومي » ، والافريقان ، والبيض ، وربما حتى الملونين (بهذا الترتيب) ، ويدعون انهم قد يفلحون ايضا بمنع الافريقيين عن قتل بعضهم البعض . وهناك عامل آخر في هذا الوضع الشائك ، هو ان جنوبي افريقيا قد اصبحت محطة رئيسية للكثيرين ممن احاق بهم الدمار او الهبوط الاجتماعي او الاهانة في « تدهور الغرب » في افريقيا وآسيا . وهؤلاء يقدمون الى جنوبي افريقيا في سيل متزايد من المتمرمرين الحاقدين الذين ظلوا احياء بعد تداعي عصرهم الذهبي . وهم في الاغلب اناس حافظوا في دخيلة انفسهم – تحت قناع ما او دونما قناع – على مواقف التعالي ، والامتياز ، والسيادة الابوية ، التي كانت ترافق سيطرة الغرب المطلقة في السابق . والقوميون ، الذين يفيدون من كل نكبة دولية او محلية ، يرون في هذا السيل المنحدر عليهم ، ممزوجا بحضور بعض الانتهازيين من ذوي الملايين البريطانيين والامريكيين ، برهانا بينا على ان « الغرب قد جن » .

وفي نهاية المطاف قد يدرك الناس ان جنوبي افريقيا بقيت تحت سيطرة البيض الذين كانوا اقرب مما ينبغي الى مشكلتهم ، في حين ان الاقليات البيضاء في افريقيا كانت اوفر حظا في انها تمتعت بسلطتها من بعيد وانها استطاعت ان تقول كلمتها السياسية الاخيرة في شؤونها . فمن الواضح انه لولا تزحزح الدول الاستعمارية من مركز الهيمنة السياسية في افريقيا لجابهت عددا من الحروب العنصرية الصغيرة . والدكتور فروورد يتشبث ، حتى الآن ، بنظرية تقول انه ستنشب حرب عنصرية طاحنة بين الشرق والغرب سيستطيع بها الغرب لاحتفاظه لحسن حظه بموانىء ومطارات ستراتيجية في جنوبي افريقيا الواقعة تحت حكم البيض) ان يعيد للرجل الابيض في ارجاء الكرة الارضية كلها .

والدكتور فروورد يبدو ، على غراره الخاص الغريب ، انه يؤمن بان الوضع الابيض في جنوبي افريقيا لا يمكن الحفاظ عليه بغير اعادة الغرب سلطانه على العالم ، ولعل ذلك يتم نتيجة لحرب عالمية اخرى . والظاهر انه لا يدرك ، او لا يهمه ان يدرك ، ان كلا من الحربين العالميتين الاخيرتين لم يتبعها الا انكماش في سلطة الغرب السياسية على العالم . وتعيين الدكتور فروورد للوضع على هذا النحو يشير الى ان كتاب شبنغلر «تدهور الغرب» (الذي ربما قرأه دون نقد ايام كان طالبا في المانيا) هو الكتاب التاريخي الوحيد الذي يستقي منه معلوماته بشأن المستقبل .

ولربما كان رئيس الوزراء يعتقد ان هيمنة البيض المستعادة يمكن صيانتها في العالم بامتداد لا حد له لسياسة « فرّق تسد » او « التنمية المنفصلة » ، التي بموجبها تقسم كل منطقة ، باستثناء الغرب الابيض ، الى عناصر عرقية او قبلية تسعى ، لا وراء السعادة، بل الحيثية الاثنية (العرقية) ، هي نماذج من « الشخصية الافريقية» او « النفس الاسيوية » .

هذا الضرب من التفكير يعرض على شاشة عالمية المخاطر والسخافات كلتيهما التي ينطوي عليها اي تطبيق « منطقي » للتعصب العنصري و التنمية المنفصلة . واذا استثنينا محيط الانتهازية الذهنية المحمومة ، يصعب علينا ان نصدق ان العالم سيتطور على هـــذا النحو بقدر ما يصعب علينا ان نصدق ان في الامكان رجوع افريقيا الى قبلية « مستعادة » . فكل حرب كبرى ، وكل اختراع كبير ، وكل ثورة كبرى ، انما تدفع بالناس الى الغوص عميقا في تورط صارخ قلق مع بقية البشرية . ولا رجعة عن هذا ، ولا سير الا الخبط الى الامام نحو وحدة انسانية اعظم يتسامح فيها الناس اكثر فاكثر في تقبل بعض خلافاتهم ، وربما يفلحون في التغلب على بعضها الآخر .

ان دولة جنوبي افريقيا ، التي تدعي اليوم انها ليست جزءا من افريقيا ، في تواشج مستمر لا محيد عنه مع بقية القارة منذ بداية هذا القرن. وحتى القرن الماضي انما انتهى بحرب نشبت لان انكليزيا يدعى رودس حاول ان يصد تقدم البوير في افريقيا على درب اراده رودس ان يكون طريقا بريطانيا صرفا من الكيب الى القاهرة . والحرب العالمية الاولى رأت الجنرال البويري السابق جان سمطس يقود الحملات في شرقي وجنوبي غربي افريقيا ، تعاونه قوات من جنوبي افريقيا ، مع غيرها . وكانت قوات جنوبي افريقيا في الحرب العالمية الثانية تمتد في خيط منظوم طويل من الزمبيزي الى الصحراء الغربية ، عن طريق نيروبي و اديس ابابا والقاهرة . وموجتنا الصناعية الكبرى الثانية بدأت بتزويد السلع الحربية للجيوش المنتشرة في افريقيا .

واليوم ، لان حكومة جنوبي افريقيا ترفض التشاور مع مواطنيها الافريقيين ، عليها ان تتناقش بشأنهم مع افريقيا كلها ، بل وبقية العالم ايضا . فمهما يكن شعور البيض تجاه افريقيا ، فقد اعلنت افريقيا ان على جنوبي افريقيا ان تكون بتمامها جزءا من القارة .

حـــلّ ؟

لا نعرف علاقة « حب – كره » ظهرت بجلاء اكثر من العلاقة بين الافريقي والافريقاني . قـــال احد الافريقان : « نحن بحاجة اليهم ، وهم بحاجة الينا » . ولعل هذه الحاجة المتبادلة اعمق مما كان يدرك حتى قائلها . فالافريقاني كمجرد « اوربي» (كما يحلو له احيانا ان يسمي نفسه) لا يعدو كونه شيئـا فيه بعض الغرابة . انه يعلم غريزيا ان ما يضفي عليه اهميته ومعناه بين الناس هو انه في افريقيا ومحاط باناس سود . ومن الناحية الاخرى ، فان الافريقي يهمه ان يتوصل الى تسوية كريمة مع الافريقاني . فحتى بين العديد من الافريقيين المنفيين يدهش المرء عندما يسمع بعضهم ، بين الحين والحين، يتحدث عن الافريقان ، بل الشرطة الافريقان ، في ما يشبه الحنين ! ففي الاساس من الامر ، ما يطالب به الافريقي هنا هو ما يطالب به الزنجي الامريكي : الاندماج معا كشركاء متساويين في مجتمع عصري . واذا ما تم الاتفاق على ذلك ، فقد يعترف الافريقي ان ثمة الكثير مما يستطيـع ان يتعلمه عن الافريقاني في الشؤون الاجتماعية والثقافية والسياسية . وقد يعينه في اتخاذ نظرة ابعد مدى ان هناك ما يقارب التوازن بين شعوب جنوبي افريقيا . فالافريقيون هم ، فقط ، ضعف مجموع الاقليات ، ويكادون يكونون متساويين مع البيض والملونين والهنود في المناطق التي يشتد فيها الاختلاط . وهذا سيجعل الانصراف المطلق الى الهيمنة العرقية من قبل الافريقيين ، سياسيا ، اشد سلبية وحمى وعنفا من هيمنة الافريقان اليوم .

وللافريقاني ما يقدمه للافريقي خارج حدود جنوبي افريقيا بقدر ما له ان يقدم داخلها . فان لديه، منذ عهد قريب لم يأت عليه النسيان بعد ، المعرفة التامة العديدة الاوجه لكل ما يعنيه الكفاح من اجل الحرية ، والتخلص من الاستعمار في النهاية ، واقامة دولة حديثة . لقد انتقل عدد غفير من الافريقان في القرن العشرين

من حالة الرعاة الرحل ومزارعي الارض الشحيحة ، ودخلوا العالم الحديث بالسكنى اولا في الاكواخ الحقيرة في ضواحي المدن، واصبحوا بعد ذلك عمالا في المصانع ، ونقابين ، ومدراء شركات ، وموظفين حكوميين، وسياسيين برلمانيين . وبعد ان كان الافريقاني ، اقتصاديا ، فقيرا مضطهدا ، غدا الآن سريع التقدم في عالم الاعمال ، وجعل يتعلق بمظاهر الترف في المدن والارياف على غرار اهل تكساس . اننا لندهش اليوم حين نذكر ان عددا كبيرا من الافريقان منذ مدة قصيرة ، في العشرينات ، كانوا يشكلون مشكلة تدعى مشكلة «البيض الفقراء» ، ويزدحمون على ارض زراعية متقطعة على غرار شبيه بغرار ازدحام الكيكويو على الارض في « مناطق الكيكويو المحصورة » في كينيا قبل ثورة الماوماو عام ١٩٥٢ . فكل شيء تقريبا على الافريقي ان يتعلمه اليوم بسرعة ، كان على الافريقاني ان يتعلمه قبله في ظروف مماثلة ، في القارة نفسها ، ولعله كان يجابه في الوقت نفسه اخطارا اعظم تهدد بقاءه .

وعلى هذا النحو كذلك ، بامكان جنوبي افريقيا ، بما فيها من اقتصاد متقدم وسكان مختلطين ، ان تكون ذات قيمة لا تقدر لمنفعة بقية القارة. فهي قد قطعت شوطا بعيدا في الدرب الذي تنشد افريقيا كلها ان تسير عليه. فالذي تروم افريقيا ان تفعله جوهريا ليس هو تنمية «شخصية» قبل كل شيء، ولا عدد من الشخصيات، بل الانضمام الى العالم الحديث لتصبح جزءا سويا منه . والقوى التي توحد الآن الثقافة الانسانية او تعممها في العالم اجمع ، من حيث افريقيا ، هي اعظم القوى في جنوبي افريقيا . فهنا ترى الناس يملكون بوفرة لا يستهان بها السيارات ، والراديوات ، والسينمات ، والجاز ، وانوار المدينة ، والاجازات السنوية ، وتقاعد الشيخوخة ، وحتى حق التصويت مهما يكن نوعه . هنا يشتغل الناس ، سودا كانوا ام بيضا ، في المصانع والمناجم بل والمزارع المدارة علميا ، ويحصلون على اعلى معدل للاجور في افريقيا . هذا ما تريده افريقيا ، كما تريده آسيا وامريكا اللاتينية . والذين سبق ان تشربوا فوائد هذه العملية التعميمية ، قد يترفعون حين يتحدثون عن نعمها . اما الذين لم يبلغوا بعد هذا المستوى المادي ، فانه بالنسبة اليهم شيء مطلوب مرغوب، يعدهم ببطون املأ ، وحياة املأ .

كان الهمّ الاكبر في مؤتمري الذروة لمنظمة الوحدة الافريقية في اديس ابابا والقاهرة هو تحقيق هدفين اثنين للقارة ، اولهما ادخال احدث الاساليب في افريقيا على اوسع نطاق ممكن بنشر التعليم والصناعة والزراعة باشكالها المستحدثة ، وثانيهما تحرير الجنوب . وقد كان معظم الزعماء الافريقيين ، ان لم نقل كلهم ، شاعرين بان دمج جنوبي افريقيا في القارة الافريقية ضروري لتحقيق الغرض الاول بقدر الغرض الثاني .

هناك بين اقطار افريقيا قطران فقط على الارجح يعتقدان ان من المستحسن ان تؤتى جنوبي افريقيا بصبر واناة ، كأن يتم معها تبادل الممثلين الدبلوماسيين . وثمة الكثير مما يمكن تحقيقه لصالح افريقيا وسكان الجمهورية الافريقيين على السواء بوسائل غير فرض التسليم بغير قيد ولا شرط على حكومة جنوبي افريقيا لتخرج من عزلتها عن بقية القارة . وهناك ايضا قوى اقتصادية دائبة على تقويض اسس الابرثايد . حتى القوميون الافريقان قد يلينون فيدركون السخف النهائي في تمسكهم العنيد بالاوضاع التي اتخذوها والوقفات البطولية التي يتظاهرون بها .

اما القادمون الجدد السود الذين يتدفقون الآن على لاغوس ، واكرا ، و ليوبولدفيل ، و نيروبي ، وكانو ، و باماكو، وجوهانسبرغ ، فانهم يتوقون الى الانغماس في فورة جماهير المدن الجديدة . ان الرغبة السائدة هي ان يصبح كل امرىء كغيره من الناس في معدل الثراء المادي . وهذا يحتوي البشر كلهم في ملاحقة محمومة للتعميم المادي ، وبلوغ المستوى العام نفسه ، وهو الذي سيخرج منه الانسان العاقل في النهاية ليخطو خطوة مضطربة اخرى الى الاعلى. وما التهيوء لنشر «التنمية المنفصلة» عند هذا المنعطف من تاريخ الانسان الا كبناء اقفاص لطيور عاجزة عن الطيران هي في انقراض سريع . وهذا انما يغري سنّة التطور بان تلفظ بيض الجنوب كما لفظت تلك الطيور الدميمة المحزنة .